

الحتمية التاريخية بين مفهوم القرآن والتصور الماركسي

الدكتور جون حنون علي العتابي

المقدمة

إن دراسة التاريخ نظرة إلى الوراء عبر حياة الإنسان المتجددة وهي صنع خلاق لوعيه، وكشف لجذور الحوافز السحيقة المحركة لمسيرته في الأرض، أن التاريخ محاولة للإجابة عن اسئلة الانسان والارتحال به إلى منطقة النور وهي معاناة اخلاقية لاستكشاف حقائق العمر الانساني.

ووفق هذه الرؤية وجدت نفسي وانا اطرح هذه الاسئلة محاكيا القرآن كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تارة، والتصور الانساني المحض من حيث هو تصور تارة أخرى. وقد اخترت التصور الماركسي كطرف آخر في هذه المعادلة الفلسفية التاريخية كونه اقرب النظريات والتصورات معاصرة لا زال الكثير يرى رؤيته ويعتقد به، على سبيل المقارنة بين المفهومين في ايجاد العلل والمسببات لمجمل التحولات التاريخية الكبرى في عمر البشرية. وقد وزعت هذا البحث على مبحثين رئيسيين، تناول الأول تعريف الحتمية التاريخية ومفهوم الحتمية التاريخية كرؤية فلسفية، ثم تناولت بإيجاز التفسير المادي للتاريخ كاتجاه فلسفي في فهم وتفسير أحداث التاريخ. وأفردت المبحث الثاني لفكرة التاريخ في القرآن الكريم من خلال النصوص الشريفة المتعلقة بالموضوع وسنن التاريخ في القرآن الكريم وحتمية الحدث، متوخيا الاختصار والتركيز بحسب ما تتطلبه طبيعة البحث وتواضعه ومجموعة المصادر التي اعتمدتها سائلا المولى عز وجل التوفيق والسداد انه سميع مجيب عليه توكلت واليه انيب.

المبحث الأول: معنى الحتمية

الحتم: القضاء، قال ابن سيده الحتم ايجاب القضاء^(١).

وقال الراغب الاصفهاني في المفردات: الحتم القضاء المقدر^(٢).

وجاء في الكتاب العزيز: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِذْ أَمَرْتُمْ بِمَا كُنْتُمْ عَلَىٰ رَبِّكُمْ حَكُمًا مُّتَضَيِّعًا﴾^(٣).

الحتمية التاريخية... رؤية فلسفية:

لقد أريد للعالم أن يكون صالحا لاستقبال الانسان، مناسبا لقدراته الخاصة، مستجيبا، بقدر لمطامحه وأهدافه. لقد هيأت أرضية العالم لكي تحرث.. وتزرع ويكون الحصاد^(٤).

إنّ التاريخ هو (السعي لإدراك الماضي البشري وحيائه)^(٥)، وهو إدراك الماضي كما كان، لا كما نتوهم، وكذلك ليس هو تصوير الماضي كما يجب أن يكون، أو كما نريده أن يكون^(٦). وإنّ الفلسفة في مدلولها العلمي العام تعني الاسترشاد بنظرة صحيحة إلى العالم تمثل مجمل المفاهيم عن الحياة في أبعادها الشاملة وظواهرها واحداثها^(٧).

ويرد الاستاذ (ادوارد كار) على القائلين بان التاريخ خلافا للعلم غير قادر على التنبؤ فيشير إلى ما أحدثه التطور المعرفي من تغيير في النظرة إلى قوانين الطبيعة والاتجاه العام إلى اعتبار قوانين العلم التي تؤثر في الحياة اليومية بيانات حول ما سيحدث إذا ظلت الأشياء الأخرى على حالها أو في ظروف المختبر، كما يلاحظ بان النظريات الفيزيائية الحديثة تتعاطى في احتمالات وقوع الأحداث. والتاريخ في هذه المسألة يلتقي مع العلوم الأخرى^(٨). لقد حاول الكثير من المؤرخين في الماضي والحاضر البحث عن العوامل المحركة في التاريخ سعياً وراء الاستظهار المنطقي لما يصطلح عليه اسم (تاريخ المستقبل) وحيث يتساءل الفيلسوف عن أهداف الأحداث وفهمه للتاريخ على أن مجموع القوانين التي تشير إلى مقصد خفي يتحقق تدريجياً أو جدياً، وينبغي القول بكلام مختصر مفيد: أن موقف الإنسان من تأريخه وتأريخ الإنسانية قرر أهمية رؤية فلسفية للتاريخ والحياة^(٩).

التفسير المادي للتاريخ:

أنّ التفسير المادي للتاريخ يقوم على تفسير يجعل القوى المادية السلطان الأكبر على نشاط الإنسان كله، ويرى ماركس أن عوامل الإنتاج المادي هي أساس التغيرات الاجتماعية والإنسانية والروحية والفكرية، وأن الفنون والتشريعات وغيرها من مظاهر الحضارة غير المادية هي نتاج ملازمة وصيغ إضافية للمادية التاريخية. وأن العامل الحاسم في حركة التاريخ هي علاقات الإنتاج وبالجملّة فإن ماركس يرى كل ما يقع في التاريخ مرجعه إلى الأسباب الاقتصادية دون غيرها وهي التي تملي على التاريخ حركته وتسيره حيث تشاء فلا مجال هناك للاعتراف باله خالق أو قوة وراء الغيب توجه البشر إلى مصائرهم، ومن هذا المنطق يتشكل مفهوم الفلسفة الماركسية: أن ليس للكون خالق بل الكون هو المادة، الدين مخدر للعقول يجب التحرر منه وإنقاذ الإنسانية من شره، المادية هي التي أنشأت الحضارة، الفرد وسيلة وليس غاية وهو ذرة تفتى في جسم الدولة، إلغاء حق الملكية وحق التوريث^(١٠).

إنّ غاية التفسير الماركسي للتاريخ ليس هي تحليل الماضي بقدر ما تهدف إلى فهم الحاضر

والتنبؤ بالمستقبل، أن هدف ماركس هو بيان تناقض النظام الرأسمالي السائد في عصره، ومن ثم تهافتة وحتمية انهياره ثم التبشير بالشيوعية أو المجتمع اللاتطقي، فليست النظرية دراسة موضوعية للأنظمة الاجتماعية في تطورها خلال عصور التاريخ من أجل التعرف على أسباب قيام هذه الأنظمة وعوامل انحلالها، وإنما تدور حول تحليل الرأسمالية في الحاضر والتنبؤ بالشيوعية في المستقبل وفي ضوء ذلك يفسر الماضي منذ أقدم عصوره بل تفسر المجتمعات البدائية وأصل الأسرة ونشأة الملكية^(١١).

إن النظرية الماركسية تخضع التاريخ والمجتمع بشكل محدد إلى ما يسميه الماركسيون بـ (النضال الطبقي) أو الصراع الطبقي وهو مفهوم اقتصادي خالص... فقد آمن الماركسية بأولوية العامل الاقتصادي ووحدايته في مجال التحولات التاريخية والاجتماعية... أما النزعات والميول الانسانية الأخرى فلم تجد لها ذكرا في الفكر الماركسي. أن التاريخ في ذلك المنظور ليس سوى تاريخ صراع الطبقات بين المستغلين والمستغلين على أن التحولات -بأسرها- هي نتاج لعملية التناقض.

تستهدف النظرية الماركسية إعطاء تفسير للعالم على ضوءه تتكشف المعايير الموضوعية لتطور المجتمع البشري، وقد اكتشفت في العامل الاقتصادي القانون الحتمي الذي يحكم مجرى التاريخ، وأن عملية الإنتاج والتبادل الاقتصادي والنظام الاجتماعي الناتج عنهما كانت في كل مرحلة من مراحل التاريخ هي العوامل الأساسية التي قام عليها التاريخ السياسي والفكري. أما ما يحدث عبر التاريخ من انقلابات اجتماعية وثورات سياسية، كانت دائما نتيجة للتغيرات التي طرأت على نظامي الإنتاج والتبادل، وظهر ذلك في صورة صراع طبقي ناتج عن الملكية الخاصة لقوى الإنتاج، لقد نظر ماركس إلى التاريخ نظرة تفاؤلية تطورية قائمة على الحتمية الاقتصادية والمادية، إذ اعتقد بأن المجتمع بدأ بـ (مشاعية بدائية) لينتهي به المطاف إلى اشتراكية اجتماعية (لا طبقات فيها)، ثم إلى اشتراكية شيوعية مطلقة تنتفي فيها السلطة السياسية أو (الدولة) وتزول، وحينها تكون البروليتاريا أو (الطبقة العاملة) هي التي تملك زمام المستقبل والتاريخ، لا بل تغدو مصالحها مع الحركة الموضوعية للتاريخ^(١٢) الدائب بين وسائل الإنتاج وعلاقاته.. حين يشتد هذا التناقض ويتراكم إلى حد معين فإنه لا بد أن يفضي إلى تغيرات نوعية... أي انتفاء نظام وقيام غيره نظام اقتصادي جديد يحدد المعالم الرئيسة للعلاقات الاجتماعية والفكرية والثقافية بشكل عام.

وقد أعرضت الماركسية وضربت صفحا كل تأثير لاي عامل آخر في مسيرة التاريخ^(١٣)

لقد بلغ ذبوع التفسير الاقتصادي (المادي) حدا جعل بعض المؤرخين يشيرون إليه باعتباره قضية مسلما بها، لا تحتاج إلى الاستدلال ولا تقبل الشك ولقد اعتبر ماركس مذهبه ذات طبيعة تخالف سائر المذاهب الفلسفية ومن ثم فهو يجبها جميعا^(١٤).

نظرية المادية التاريخية:

صاغ ماركس وانجلز الموضوعة الرئيسية للمادية التاريخية بأن الوجود الاجتماعي هو الذي يحدد الوعي الاجتماعي والوجود الاجتماعي هو الحياة المادية للمجتمع وقبل كل شيء نشاط الناس الانتاجي والعلاقات الاقتصادية التي تنشأ بين الناس في عملية الانتاج أما الوعي الاجتماعي فهو حياة الناس الفكرية، الافكار والنظريات التي يسترشدون بها في نشاطهم العملي^(١٥).

إن الأمر الرئيس في المادية التاريخية هو أسلوب الإنتاج وأثره في تطور المجتمع، وإن أسلوب الإنتاج وعملية الإنتاج تتأثر بعوامل وشروط هي: الوسط الجغرافي، والسكان، والقوة المنتجة وعلاقات الإنتاج، وبذلك يعرف التاريخ خمسة أساليب وأنماط إنتاج متتابعة أي خمسة مجتمعات هي:

١- المجتمع البدائي: الذي يبدأ بظهور الانسان الذي تميزه عن الحيوانات قدرته الخاصة على صنع أدوات عمله حيث أن العمل يمثل المرتبة الأولى من الأهمية في تكوين الإنسان وتطوره.

٢- مجتمع الرق: وهو المجتمع الذي تطورت قواه المنتجة من أدوات الخشب والحجر إلى المعادن كالبرونز والحديد، وشاعت علاقات السيطرة والخضوع والاستغلال القاسي للعبيد تلك الطبقات المحرومة من الحقوق.

٣- المجتمع الاقطاعي: وقد تطورت فيه اساليب الزراعة والصناعة والقوى المنتجة وإشاعة الملكية الاقطاعية عبر وسائل الانتاج وقبل كل شيء الارض والملكية غير الكاملة على التشغيل - الفلاح - القن.

د- المجتمع الرأسمالي: وما يميزه هو الانتاج الكبير القائم على استخدام الآلات والمكائن والمعدات والمعامل الضخمة واخضاع قوى الطبيعة أما علاقات الانتاج فقائمة على اساس الملكية البرجوازية الخاصة التي قضت بالتدرج وبدون رحمة على الملكية الاقطاعية، وإن البروليتاريا - وهم الطبقة المنتجة - حرة من الناحية القانونية غير أن هذه الطبقة غير مستقلة عن الطبقة البرجوازية بحكم حرمانها من وسائل الإنتاج، فهي مضطرة إلى بيع قوة عملها

ولهذا بالذات تحمل نير الاستغلال.

هـ- المجتمع الاشتراكي الشيوعي: يقوم اسلوب الانتاج الاشتراكي على اساس الملكية إلا اجتماعية ولا ينسجم مع الاستغلال، وهذا يعني انا الاشتراكية لا تولد من رحم الرأسمالية كما ولدت الرأسمالية من رحم الاقطاع. أن الاشتراكية تقطع صلتها نهائيا بالملكية الخاصة، وتزِيل إلى الابد الاستغلال وكل اضطهاد آخر، ولهذا لا بد من ثورة اشتراكية ومرحلة انتقالية كاملة من الرأسمالية إلى الاشتراكية وفي هذه المرحلة تنشئ الطبقة العاملة التي أخذت بأيديها السلطة، بالتعاون مع جميع الشغيلة، وبشكل واعٍ ومبرمج اسلوب الانتاج الاشتراكي، وبعد أن تحرز الاشتراكية شأوا كبيرا في تطورها ويتم انشاء القاعدة المادية الكبيرة في جميع ميادين الحياة الاقتصادية في المرحلة التالية يتم بناء المجتمع الشيوعي وهي المرحلة الاخيرة في بناء المجتمعات وتطورها، فتستند علاقات الإنتاج إلى الملكية الاجتماعية على وسائل الانتاج.. وتتوجد الملكية الشيوعية الواحدة التي تعود لجميع افراد المجتمع دون استثناء، وستكون هناك علاقات انتاج بين أناس احرار واعين ومتطورين ويتحقق المبدأ العظيم (من كل حسب كفايته ولكل حسب حاجاته) وتصبح الشيوعية هي حلم الإنسانية طيلة قرون عديدة^(١٦).

نقد النظرية:

لقد اغفلت الماركسية عاملا مهما جدا في فهم حركة التاريخ وتطور المجتمع حين الغت العامل العقلاني الروحي وركزت بشكل مطلق على التصور المادي للتاريخ من خلال ايمانها باحادية العامل الاقتصادي واهميته في الحركة التاريخية^(١٧).

- يسود النظرية منطق الحتمية القاسية التي تنعدم فيها حرية الارادة الانسانية، فالقوى الاقتصادية اقوى من سيطرة الافراد بل ارادة الطبقات.

- انها نظرية واحدية في التفسير التاريخي إذ تجعل العوامل الروحية والفكرية تابعة للعامل الاقتصادي وهي بذلك تغفل الصفة الفردية للواقعة التاريخية.

- عرض ماركس وانجلز المادية التاريخية باعتبارها تفسير لواقع التاريخ وتحليلا علميا له، ومع ذلك تخط النظرية بين عالم الواقع وعالم القيم فبالرغم من انه ينتقد الرأسمالية على اساس ما تتضمنه من متناقضات لأعلى اساس ما يلحق العمال من ظلم، فانه يبشر بالشيوعية باعتبارها المجتمع الذي تتحقق فيه السعادة للانسانية ويمنح العمال امل الفردوس على الارض

وهذه نبوءة اخلاقية تذرع لها بأسس ادعى انها علمية موضوعية^(١٨).

وبعد هذا وذاك نقف مع ماركس متسائلين ومناقشين لاطروحته الفلسفية من جوانب اهمها:

أولاً: فقدان الدليل: أول مناقشة في هذه النظرية انها لا تعدو فرضية من دون دليل، فكل نظرية فلسفية تاريخية لابد لها من الاعتماد على التجارب التاريخية حول الاحداث الخارجية في زمانها ثم يعمم لسائر الازمنة أو الاعتماد على الشواهد التاريخية السابقة وتعميمها للحاضر والمستقبل أو يكون اثباتها عن طريق القياس والاستدلال المنطقي على اساس الاصول العلمية، أو المنطقية والفلسفية التي تكون مقبولة مسبقاً، وفرضيته المادية التاريخية لا تبتنى على شيء من المذكورات.

ثانياً: إن الصين بقيادة (ماو) قلبت النظام الاقطاعي الصيني القديم بثورة فلاحية وافر مكانه نظاما اشتراكيا، مع أن قوانين الاشتراكية العلمية والمادية التاريخية تقول بان المجتمع الذي يمر بالاقطاعية لا بد من وصوله إلى المرحلة الصناعية والرأسمالية وبعد بلوغه قمة المرحلة الصناعية يخطو نحو الاشتراكية^(١٩).

ثالثاً: لقد تقدمت الدول الكبرى كبريطانيا وفرنسا وأمريكا تقدماً صناعياً عظيماً ووصلت فيها الرأسمالية إلى قمة المرحلة، وخلافا لتوقعات ماركس الذي عدّ هذه الدول في مقدمة الدول التي تحقق ثورات عمالية وتؤسس دولا اشتراكية، لم يتغير نظامها السياسي والحقوقى والديني، وكل ما يعدّ من اجزاء البناء العلوي، فالطفل الذي انتظر ماركس ولادته مضت عليه الاشهر التسع ولم يولد، بل مضت عليه تسع سنين، بل بلغ تسعين سنة ولم يولد ولا ترجى ولادته^(٢٠)، فلو كان التفسير الماركسي للتناقض صحيحاً لكان من المفروض أن يزداد يوماً بعد يوم التناقض الطبقي والصراع بين الطبقة الرأسمالية والطبقة العاملة في المجتمعات الأوروبية الصناعية التي تطورت فيها الآلة تطوراً كبيراً.

رابعاً: ونضيف اننا ننظر الآن إلى تهاوي النظام الاشتراكي في دول كانت معقل النظرية وساحة تطبيقها حيث قامت قياداتها بحركات اطلقت عليها اسم التصحيح أو الاقتصاد الحر أو مسميات أخرى ونزعت ثوب النظرية الماركسية بل سارت اكثر من ذلك إلى محو اغلب اثار ورموز النظام السابق حتى اسماء المدن واطلقوا عليها اسماءها القديمة.. وأسوا على انقراض القديم نظاماً جديداً لكننا لا نجده (الشيوعية ذلك الوليد المنتظر) كما تراه الماركسية بل هو ود على بدء باتجاه الرأسمالية لا (طريق التطور للرأسمالي صوب

الاشتراكية).

المبحث الثاني: فكرة التاريخ في القرآن الكريم

إن فكرة القرآن الكريم على نحو ما توضحه آيات القرآن الكريم ذات المضمون التاريخي، تجسيد للتصور الاسلامي لرسالة الانسان في الحياة.

فالانسان، حسب المفهوم الاسلامي، خليفة الله في الارض، وقد تحمل امانة اعمار هذه الارض وبناء الحضارة ونشر الحق والعدل في ربوعها وفق سنة الله ولكي يستطيع الانسان أن يقوم بدوره هذا ينبغي أن يتعرف على ذاته حتى ينجح في اداء رسالته^(٢١).

وقد دعا القرآن الكريم المسلمين إلى التعرف على ذاتهم الحضارية في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾^(٢٢) هذه الدعوة إلى معرفة الذات يمكن للانسان أن يحققها من خلال رصد الماضي الحضاري للبشر.

وهنا نلاحظ أن فكرة التاريخ في القرآن الكريم تقوم على اساس أن التاريخ فعل انساني، والفعل التاريخي نتاج لتفاعل الانسان مع بيئته في اطار الزمان دهرًا أيضًا خير وسيلة لكشف هامية الإنسان التاريخية وذلك نجد المادة في القرآن الكريم تحكي قصة الاقوام والحضارات التي شهدتها مسيرة البشر عبر الزمان مثل قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط ومدين وغيرهم. بيد أن القصص القرآني الوارد في ثنايا القرآن الكريم ليس هدفًا في حد ذاته وإنما يهدف إلى انارة الفكر البشري ودفعه إلى التساؤل والبحث عن الحق باستمرار^(٢٣).

فالمادة التاريخية الواردة في القرآن الكريم تقوم على اساس أن للتاريخ معنى اخلاقيًا روحيا محوره دور الانسان كونه خليفة الله في الارض، وبوصفه مسؤولًا عن تعمير العالم واقامة الحق في ربوعه، وثمة حقيقة يؤكدتها القرآن الكريم مؤداها أن الفعل الانساني في التاريخ سبب له نتائج التي يتحدد بها مصير البشرية، وبعبارة أخرى فإن الانسان هو صانع التاريخ^(٢٤).

ويطرح القرآن الكريم من خلال المادة التاريخية التي تتضمنها الآيات الكريمة، النتائج التي يمكن الخروج بها من دراسة التاريخ الانساني وامعان النظر في وقائعه والتأمل في احداثه والهدف هنا عملي وتربوي أيضًا فالقرآن الكريم يصور بوضوح شديد أن ثمة قوة في الحق، وان الفشل يحيق بالباطل في النهاية... ويوضح القرآن أن التغيير التاريخي لا يحدث فجأة، إذ يحدث تراكم بطيء عبر الزمان للاسباب التي ينتج عنها تغيير تاريخي كبير بعد فترة زمنية طويلة^(٢٥).

وهنا نلاحظ أن التاريخ لا يجري اعتباطاً وحركته ليست عشوائية إنما محكومة بسنن وقوانين من بداية الخلق حتى يوم القيامة^(٢٦).

سنن التاريخ في القرآن الكريم وحتمية الحدوث:

إن تاريخ البشرية منذ فجره وحتى تقوم الساعة يشهدنا على امتداد مطامح الانسان ورؤاه ومنازعه صوب عالم الغيب وتجاوز الملموس والمنظور، ولأننا برفضنا هذا البعد الغيبي نمارس عملية تزييف وتزوير في تفسيرنا للتاريخ البشري، ونلغي من حسابنا مساحات واسعة من فاعلياته ومعطياته لا شيء إلا لأنها لا تخضع لمقاييس الحس وموازن التجريب المادي المباشر^(٢٧).

إن الكون الذي هو تعبير عن ابداع الخالق، تحكمه قوانين واحدة، واسباب واحدة، ونواميس واحدة، تصدر عن ارادة واحدة. إن التاريخ البشري لا يتحرك فوضوياً ومن غير هدف وإنما تحكمه سنن ونواميس كتلك التي تحكم الكون والعالم والحياة والاشياء.. سواء بسواء... ولأن الوقائع التاريخية لا تخلق بالمصادفة وإنما من خلال شروط خاصة تمنحها هذه الصفة أو تلك، وتوجهها صوب هذا المعبر أو ذاك.

إن القرآن الكريم يطرح على العقل البشري مسألة السنن والنواتيس التي تسير حركة التاريخ وفق منعطفها الذي لا يخطئ^(٢٨). قال تعالى: ﴿سَنَةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكُنْ تَجِدَ لِسَنَةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾^(٢٩) وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يُنظَرُونَ إِلَّا سَنَةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسَنَةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسَنَةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾^(٣٠).

والقرآن الكريم لا يؤكد ثبات هذه السنن وديمومتها فحسب ولكنه يحولها في الوقت نفسه إلى دافع حركي يفرض على الجماعة المؤمنة أن تتجاوز مواقع الخطأ التي قادت الجماعات البشرية السابقة إلى الدمار وان تحسن التعامل مع قوى الكون والطبيعة مستمدة التعاليم والقيم من حركة التاريخ نفسه قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ * هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ * وَلَا تَنْهَوْا وَلَا تَحْزَنْوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَنْسَخْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾.

إن كتلة العالم والطبيعة وفق المنظور القرآني قد سخرت للانسان تسخييراً، وقد حدد الله سبحانه ابعادها وقوانينها مع ما يتلائم والمهمة الاساسية لخلافة الانسان في العالم ولنتصور كيف يكون الحال لو كانت الشمس أو القمر على سبيل المثال اقرب قليلاً أو ابعد قليلاً عن موقعها

اجتماعية التاريخية بين مفهوم القرآن، والتصور الماركسي

لا يتغير إلا وفقا لتغيير القاعدة قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(٣٨).

من مجموع هذه الآيات يتبلور المفهوم القرآني الذي يقرر أن المساحة التاريخية تمثل كل المساحات الكونية الأخرى، لها سنن وضوابط، هذا المفهوم القرآني يعتبر فتحاً عظيماً للقرآن الكريم لأن القرآن -بحدود ما نعلم- أول كتاب عرفه الإنسان ضم بين دفتيه هذا المفهوم وكشف عنه، وأصر عليه، وقاوم بكل ما لديه من وسائل الاقناع والتفهم النظرة العفوية أو النظرة الغيبية الاستسلامية لتفسير الأحداث، كانت النظرة السائدة تتجه نحو تفسير أحداث التاريخ بوصفها كم متراكم من الأحداث على أساس الصدفة تارة وعلى أساس القضاء والقدر والاستسلام لامر الله سبحانه وتعالى تارة أخرى. القرآن الكريم قاوم هذه النظرية العفوية وقاوم النظرية الاستسلامية ونبه العقل البشري إلى أن لهذه الساحة سنناً وقوانين^(٣٩).

إن القرآن الكريم لا يسبغ الطابع الغيبي على الحادثة بالذات ولا ينتزع الحادثة التاريخية من سياقها ليربطها بالسماء ولا يطرح صلة الحادثة بالسماء كبديل عن العلاقات والأسباب والمسببات القائمة على هذه المساحة التاريخية، إنه يربط الحادثة التاريخية ويربط كذلك أزمة العلاقات والارتباطات بالله. القرآن يقرر أولاً وجود روابط وعلاقات بين الحوادث التاريخية، إلا أن هذه الروابط والعلاقات بين الحوادث التاريخية هي في الحقيقة تعبير عن حكمة الله سبحانه وتعالى وحسن تقديره وبناءه التكويني للمساحة التاريخية^(٤٠). حيث تتجاوز بعض آيات القرآن الماضي والحاضر لكي تمتد رؤيتها إلى المستقبل القريب أو البعيد في تنبؤات تاريخية، يحيطها علم الله تعالى المطلق بالصدق الكامل والضمانة النهائية، ولقد نفذ بعض هذه النصوص والتنبؤات في عهد الرسول الكريم نفسه، وظل بعضها الآخر ينتظر التنفيذ^(٤١) قال تعالى: ﴿إِنَّمَا * غُلَبْتُ الرُّومَ * فِي أَذْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بَعْضِ سِنِينَ﴾^(٤٢)، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنِ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ﴾^(٤٣).

ولقد رأى الرسول الكريم ما وعده الله سبحانه وتعالى. كل هذا لم يجر على سبيل الصدفة أو على أساس القضاء والقدر بل نتيجة لارتباط السنن التاريخية بالله. فقد يفسر انسان ظاهرة المطر الطبيعية بان المطر نزل بإرادة الله، وكأن نزول المطر حادثة لا علاقة لها بالاسباب الطبيعية وغير منسوبة لها، وانما هي مفردة ترتبط مباشرة بالله سبحانه وتعالى بمعزل عن

الحوادث وتيارها. هذا النوع من الكلام يتعارض مع التفسير العلمي لظاهرة المطر، أما أن تكون ظاهرة المطر لها اسبابها وعلاقاتها وهي مرتبطة بالدورة الطبيعية للماء وان هذا التسلسل السببي المتقن وهذه العلاقات المتشابكة بين الظواهر الطبيعية هي تعبير عن حكمة الله وتقديره، وحسن رعايته، مثل هذا الكلام لا يتعارض مع الطابع العلمي للتفسير الموضوعي لظاهرة المطر لان هذا ربط لسنة الحادثة بالله سبحانه وتعالى مع عدم عزلها عن بقية الحوادث وعدم قطع ارتباطها بمؤثراتها وأسبابها^(٤٤). أن القرآن الكريم حين يسبغ الطابع الرباني على السنة التاريخية لا يريد اذن أن يتجه اتجاه التفسير الإلهي في التاريخ الذي مثلته مدارس الفكر اللاهوتي على يد عدد كبير من المفسرين لمسيحيين واللاهوتيين من أمثال أوغسطين حيث فسروا لتاريخ تفسيراً إلهياً. إنما أراد القرآن أن هذه السنن ليست خارجة من وراء قدرة الله تعالى وإنما هي تعبير وتجسيد وتحقيق لقدرة الله وهي كلماته وسننه وإرادته وحكمته في الكون من اجل أن يبقى الإنسان مشدوداً إلى الله سبحانه وتعالى وتبقى الصلة بين العلم والإيمان^(٤٥).

المصادر والمراجع

❖ القرآن الكريم .

١. أفاناسيف، اسس الفلسفة الماركسية، دار التقدم، موسكو.
٢. ابن منظور - لسان العرب - دار لسان العرب، بيروت (بلا.ت).
٣. احمد محمود صبحي (الدكتور)، في فلسفة التاريخ.
٤. احمد محمود صبحي (الدكتور)، في فلسفة التاريخ، مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية (د.ت).
٥. ادوارد كار، ما هو التاريخ، ترجمة ماهر الكيالي وبيار غفل/ ط١، بيروت، ١٩٧٦م.
٦. انور الجندي، التفسير الإسلامي للفكر البشري، الإيديولوجيات والفلسفات المعاصرة في ضوء الإسلام، القاهرة، ١٩٧٧م.
٧. الراغب الأصفهاني، أبو القاسم حسين بن محمد (ت ٥٠٢هـ)، المفردات في غريب القرآن.
٨. السيد الشهيد محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية.
٩. الشهيد مرتضى المطهري، المجتمع والتاريخ، دار المرتضى، بيروت .
١٠. عماد الجواهري (الدكتور) وآخرون، دراسات في فلسفة التاريخ، دار الكتب للطباعة/ جامعة الموصل، ١٩٨٨م.
١١. عماد الدين خليل (الدكتور)، التفسير الاسلام بالتاريخ، منشورات مكتبة ٣٠ تموز، ط٤/ ١٩٨٦م.

١٢. عماد الدين خليل (الدكتور)، حول اعادة تشكيل العقل المسلم/ منشورات مكتبة ٣٠ تموز، بغداد ١٩٨٥م.
١٣. قاسم عبده قاسم (الدكتور)، تطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية/ بحث منشور في مجلة عالم الفكر.
١٤. قسطنطين زريق، نحن والتاريخ، دار العلم للملايين، ط٥ / ١٩٨١م.
١٥. مسلم حسب حسين، التحول التاريخي، بين إرادة الإنسان والحمية التاريخية.
١٦. مسلم حسب حسين، بحث بعنوان (التحول التاريخي بين الإدارة الإنسانية والحمية التاريخية) مجلة آفاق عربية، عدد ١٠، بغداد ١٩٨٣م.
١٧. الياس فرح (الدكتور)، تطور الفكر الماركسي، عرض ونقد، ط٤ / دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٨م.

الهوامش :

١. الراغب الأصفهاني، أبو القاسم حسين بن محمد (ت ٥٠٢هـ)، المفردات في غريب القرآن، مادة (حتم).
٢. ابن منظور - لسان العرب - دار لسان العرب، بيروت (بلا.ت) ج ١، ص ٥٦٤.
٣. مريم / ١٩.
٤. الدكتور عماد الدين خليل، حول اعادة تشكيل العقل المسلم/ منشورات مكتبة ٣٠ تموز، بغداد ١٩٨٥م، ص ٧٤.
٥. قسطنطين زريق، نحن والتاريخ، دار العلم للملايين، ط٥ / ١٩٨١، ص ٤٩.
٦. م.ن، ص ٥٧.
٧. الدكتور عماد الجواهري وآخرون، دراسات في فلسفة التاريخ، دار الكتب للطباعة / جامعة الموصل، ١٩٨٨، ص ١٥.
٨. ادوارد كار، ما هو التاريخ، ترجمة ماهر الكيالي وبيار غفل / ط١، بيروت، ١٩٧٦، ص ٦٢، ص ٦٣.
٩. الدكتور عماد الجواهري، دراسات في فلسفة التاريخ، ص ٢٨-٢٩.
١٠. أنور الجندي، التفسير الإسلامي للفكر البشري، الإيديولوجيات والفلسفات المعاصرة في ضوء الإسلام، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٤٦-٤٧.

١١. الدكتور احمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية (د.ت)، ص٢٣١.
١٢. الدكتور الياس فرح، تطور الفكر الماركسي، عرض ونقد، ط٤/ دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٨، ص٢٦.
١٣. مسلم حسب حسين، بحث بعنوان (التحول التاريخي بين الإرادة الإنسانية والحتمية التاريخية) مجلة افاق عربية، عدد ١٠، بغداد ١٩٨٣، ص٢٣.
١٤. الدكتور احمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، ص٢٤١.
١٥. ف. افاناسيف، أسس الفلسفة الماركسية، دار التقدم، موسكو، ص١٥٣.
١٦. ف. افاناسيف، اسس الفلسفة الماركسية، ص١٩٠، وما بعدها.
١٧. مسلم حسب حسين، التحول التاريخي، بين ارادة الانسان والحتمية التاريخية، ص٢٣-٢٤.
١٨. الدكتور احمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، ص٢٤٠-٢٤١.
١٩. الشهيد مرتضى المطهري، المجتمع التاريخ، دار المرتضى، بيروت ج ١، ص١٣٨.
٢٠. م. ن. ج. ١، ص٤٢.
٢١. الدكتور قاسم عبده قاسم، تطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية/ بحث منشور في مجلة عالم الفكر.
٢٢. سورة الحج/ ٤٦.
٢٣. الدكتور قاسم عبده قاسم، تطور مناهج البحث، ص١٨٣.
٢٤. (م.ن)، ص٥٧، ٥٢.
٢٥. د. عماد الدين خليل، التفسير الاسلام بالتاريخ، منشورات مكتبة ٣٠ تموز، ط٤/ ١٩٨٦م، ص١٠٨-١٠٩.
٢٦. محمود اسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، ج ١، ص٢٣٩، (د.ت).
٢٧. الدكتور عماد الدين خليل، التفسير الاسلامي للتاريخ، ص١٣٣.
٢٨. الدكتور عماد الدين خليل، اعادة تشكيل العقل المسلم، ص٣٣.
٢٩. سورة الاحزاب/ ٦٢.

٣٠. سورة فاطر/ ٤٣.

٣١. د. عماد الدين خليل، اعادة تشكيل العقل المسلم، ص ٧٩.

٣٢. د. عماد الدين خليل، التفسير الاسلامي للتاريخ، ص ١٦٢.

٣٣. الاعراف/ ٣٤.

٣٤. سورة الكهف/ ٥٨ - ٥٩.

٣٥. الانفال/ ٢٥.

٣٦. الاسراء/ ٧٦ - ٧٧.

٣٧. الرعد/ ١٣.

٣٨. الانفال/ ٥٣.

٣٩. السيد الشهيد محمد باقر الصدر (قده)، المدرسة القرآنية، دار المعارف للمطبوعات، ط ٢، بيروت، ١٩٨١، ص ٧١.

٤٠. السيد الشهيد محمد باقر الصدر (قده)، المدرسة القرآنية، ص ٧٩.

٤١. د. عماد الدين خليل، التفسير الاسلامي للتاريخ، ص ١٠٣.

٤٢. الروم/ ١ - ٢.

٤٣. الفتح/ ١.

٤٤. السيد الشهيد محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية، ص ٧٩.

٤٥. السيد الشهيد محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية، ص ٨٠.